السخرية في أدب الرافعي ونقده – العقاد نموذجا-

Irony in the literature and the criticism of alrafii
- Al Aqad as a case study-

طالب دكتوراه/ عنتر رمضاني
الأستاذ الدكتور/ بوعلام بوعامر

قسم اللغة العربية وآدابها –جامعة غرداية –غرداية – الجزائر-
مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري (فرقة النقد والتراث بالجنوب الجزائري)
ramdani.antar@univ-ghardaia.dz

تاريخ الإيداع: 2020/04/30 تاريخ القبول: 2020/12/30 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخص:

نحاول في هذا البحث تقصي ملامح السخرية في أدب مصطفى صادق الرافعي ونقده خاصة، وكيف استند الرافعي عليها واختارها كاستراتيجية لنقد خصومه ممن جمعته بهم معارك وسجالات أدبية ونقدية، مثل: طه حسين والعقاد. والجدير بالذكر أن خطة الرافعي في نقده قد تعددت طرقها فهو تارة يناقش الفكرة ويفصل فيها ويبين غلط صاحبها، وتارة ما يرتفع هذا النقد ليصبح إساءة ومسبَّة، وتارة ينحو فيه منحى السخرية بخصومه، وتنضوي هذه الآلية على السخرية من أفكار خصومه بطريقة فنية سلك فيها مسلكا جديدا في بعض الأحيان، ستظهر تجلياته من خلال هذا المقال. واخترنا معركته مع عباس محمود العقاد لبحث ملامح السخرية فيها.

الكلمات المفتاحية: السخرية؛ الرافعي؛ النقد؛ طه حسين؛ العقاد.

Abstract:

In this research, we try to investigate the features of satire in the literature and criticism of Mustafa Sadiq Al-Rafei. How he relied on such a literary device and chose it as a strategy to criticize rivals with whom he had literary and critical debates, such as: Taha Hussein and Al-Aqad. It is worth mentioning that Al-Rafei's plan in his criticism has multiple methods; sometimes he discusses the idea in details and shows the mistakes in it, other times this criticism becomes an abuse and an offense, and sometimes

it tends to ironically mock his opponents. This mechanism involves mocking the ideas of his rivals in a technical new path which will be showed in this article. We chose his confrontation with Abbas Mahmoud Al-Aqad to discuss the features of satire within.

Key words: criticism, satire, Mustafa Sadiq Al-Rafei, Al-Aqad.

- تمهيد:

نحاول في هذا البحث دراسة فترة من فترات النقد الأدبي، مع الأديب مصطفى صادق الرافعي، إذا الناظر إليها من الداخل وبصورة موضوعية يرى أنها فترة ازدهر فيها النقد عبر سجالات وخصومات بين كبار الكتاب والأدباء آنذاك ومنهم، طه حسين، وعباس محمود العقاد وغيرهم كثير، مركزين على معركته النقدية مع العقاد، وكيف اتخذ مصطفى صادق الرافعي آليات واستراتيجيات لنقده، والتي منها السخرية به، هذه الأخيرة التي ذهب فيها الرافعي مذاهب شتى، فهو تارة يناقش الفكرة ويفصل فيها ويبين غلط صاحبها، وتارة ما يرتفع هذا النقد ليصبح إساءة ومسبَّة، وتارة ينحو فيه منحى السخرية بخصومه، وتنضوي هذه الآلية على السخرية من أفكار خصومه بطريقة فنية سلك فيها مسلكا جديدا في بعض الأحيان، وقبل الولوج إلى مضان البحث نقف مع سيرة مختزة للأديب مصطفى صادق الرافعي.

1- ترجمة الرافعي:

مصطفى صادق الرافعي الأديب المصري ذو الأصول السورية، هو مصطفى بن عبد الرزاق بن سعيد بن عبد القادر الرافعي، ولد في أوائل يناير1880 م، بقرية بهتيم من محافظة القليوبية بمصر.

نشأ نشأة إسلامية محافظة، فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، واطلع على التراث الديني والأدبي العربي وغيره، وحفظ الكثير من الشعر والنثر، وكان محبا للمطالعة عاكفا عليها، فزاول مكتبات اسرته وبلدته واستوعب ما فيها من تراث وذخائر.. توفي صبيحة يوم: الاثنين 10 مايو 1937م، فاجأ الموت الرافعي عن عمر يناهز سبعا وخمسين سنة. مخلفا فراغا كبيرا في الحياة الأدبية آنذاك. ألف الرافعي كتبا كثيرة ودواوين عديدة فمن ذلك مثلا: تاريخ آداب العرب، ووحي القلم، وحديث القمر، وكتاب المساكين، وثلاثية الحب والجمال (رسائل الأحزان و السحاب الأحمر وأوراق الورد)، كما نظم الشعر وألف فيه في سن مبكرة فنظم ديوان "نسيم السحر" و هو ديوان شعر فيما نحسب لم يتناوله المهتمون بالأدب، ثم ألف ديوانه (ديوان الرافعي في ثلاثة أجزاء)، وفي سنة 1908 أصدر ديوان النظرات، وألف ديوان "أغاريد الرافعي" و ألف في فن المسرح مسرحية "حسام الدين الأندلسي" ومسرحية "موعظة الشباب" في سن مبكرة سبقت كتابته الشعر.

كانت له سجالات ومعارك نقدية وأدبية احتضنتها كبريات الصحف المصرية آنذاك كالمقتطف والعصور والزهور وغيرها ونشرت فيما بعد في كتب خاصة ككتاب "تحت راية القرآن" وكتاب "على السفود"، وخاض في قضايا كثيرة مع أدباء كبار كطه حسين، وعبد الله عفيفي و زكي مبارك وسلامة موسى، وحسنين هيكل، وعباس محمود العقاد وغيرهم كثير، ولكل معركة أسبابها وقضاياها ونتائجها.

والناظر في المعارك الأدبية التي خاضها الرافعي مع الكثير من الأدباء والنقاد، بدءا من لطفي السيد، مرورا بسلامة موسى، ثم طه حسين فالعقاد وغيرهم كثير، يرى أنه ابتكر طريقة جديدة للاستدلال والاحتجاج لآرائه، أو لرد الآراء النقدية التي طرحها أولئك النقاد، أو حتى عارضوا بها فكره وتوجهه، لا سيما القضايا التي تمس تراثنا الديني والعربي. فالرافعي وإن كانت له آراء جيدة في باب النقد إلا أن إحساسه بأهمية النقد وضرورة مواكبته للأدب، هو الذي جعل معالجته لقضاياه تكون مختلفة عن كثير من النقاد، فالواقع الأدبي آنذاك جعله يقول إن النقد في حاجة إلى:" نقاد متفرغ للنقد، مستجمع أسبابه، بصير بمذاهبه، متحقق بكل وسائله" .

فدارت رحى هذه الخصومات في مواضع شتى، وبذل الرافعي في الرد عليهم كل طاقته، وبلغ به الأمر حد السخرية من بعضهم، كوسيلة للإطاحة بهم، وبيان أنهم ليسوا أهلا للأدب أو الشعر أو للحديث في تلك المواضيع المستجلبة من الغرب مثل طه حسين وكلامه في التراث العربي، فنحى منحى السخرية في كثير من ردوده لأنه رآها مناسبة لمقامهم، كأفضل وسيلة للحط من قيمتهم والاستهزاء بهم. فالسخرية في نقده تعد استراتيجية خِطابية نقدية حجاجية، تجعل من المحتمل أهم انشغالاتها. وللإجابة عن كيفية تبنيُن المحتمل في الخطاب الساخر خاصة إذا كان نقديا، نشير مع سعيد علوش إلى أن السخرية تتمثل في منهج جدلي يعتمد على الاستفهام بمفهومه البلاغي. إذْ تُعتبر طريقة في توليد الثنائية، والتعليم على البُعد المعرفي[1]، ولأنها قائمة على الجدل أو ذكر الحجج، فلا شك أن لها أبعادها الحجاجية المنضوية تحت الخطاب الموجه للطرف الآخر.

ولا مجال لفهمها (السخرية) إلا باستبطان مفهومها كمحسن بلاغي، وكتقنية كتابية، تتوخى تمرير "حقيقتها" وتسويغها في سياق تواصلي يؤطر الكتابة والمكتوب له[2]، لذا سنعرض مفهوم السخرية حتى يتضح لنا مفهومها بصورة شاملة. وكذا ملامحها وشروطها.

2- مفهوم السخرية:

أ- السخرية لغة: السخرية قديمة قدم الإنسان، لأنها قد تكون ترويحا عن النفس أو تسرية عن القلب، أو استنكارا لما يقع، أو هزءا وتندرا بالخصم، كما جاء قصة نوح عله السلام[3]، حين أمر بصنع السفينة، ليجمع فيها من كل زوجين اثنين، من أهله وقرابته ومن

المؤمنين الذين اتبعوه، فما كان من قوه إلا أن سخروا منه وضحكوا عليه يقول الله تعالى: **(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) (هود** 38)، فهذا نص من كتاب الله عز وجل يؤرخ لقدم السخرة وعلاقتها بحياة الناس في فترة بعيدة جدا من التاريخ.

والناظر في مادة (س خ ر) كما تعرض لها معاجم اللغة يجدها ثرية غنية، متعددة المعاني مختلفة الدلالات، مدارها كله على الاحتقار والاستذلال والتسخير حينا، والاستهزاء والاستخفاف أحيانا أخرى.

يقول ابن فارس: السين والخاء والراء، أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال"[4]. والواضح هنا في إشارة ابن فارس لمفهوم السخرية أنها متصلة ببعدها التحقيري ونتيجة فعل السخرية على المسخور به وإلحاق الذل والمهانة به. وقال الأزهري: سخر منه وبه، إذا تهزأ به؛ والسخرة الضحكة، فأما السخرة: فما سخرت من خادم أو دابة بلا أجر ولا ثمن. فدل هذا على ورود معنى الاستذلال والتسخير لأجل غاية يقصدها المتكلم.

ومن هذا المعنى ما ورد في آيات الكتاب العزيز من مثل قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ**)(الحجرات 11)، ففعل السخرية في الآية الكريمة منهي عنه لما يترتب عنه من إساءة وإهانة بالآخرين، والقول عنهم بما لا يليق، خاصة لغير سبب ظاهر، لما فيه ذلك من الاستهانة بأقدار الناس وكرامتهم، وجرح شعورهم، وهو ما كان منتشرا بين القبائل آنذاك[5].

و يكاد اللغويون يتفقون في تحديد معنى السخرية في مصنفاتهم، ولهذا ورد معناها متقاربا في معاجم العربية، بدءا من معجم العين، وانتهاء بالمعاجم الحديثة، فالسخرية هي من الأصل الثلاثي (سَخِرَ) المكسور العين، وهو من باب (طَرِبَ) والمصدر منه (سُخْرٌ) بضمتين، و (سخرية) اسم له، ونقل عن الأخفش أنه يتعدى بـ من وبالباء، فيقال: سخر منه، وسخر به، وهما لغتان، والأخيرة أردأهن[6]، ويقال: سَخِرْتُهُ: أي قهرته وذللته، وكل مقهور مدْبِر، لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك (مُسَخَّر)[7]. فمعنى القهر والاستغلال متصل بمعنى هذه الكلمة وما يؤيد ذلك قول أبي هلال العسكري صاحب الفروق في اللغة: " أصل سخرت منه التسخير، وهو تذليل الشيء وجعلك إياه منقادا، فكأنك إذا سخرت منه جعلته كالمنقاد إليه"[8]. أي المسخر لعمل ما أو شيء ما، فيكون هذا صور من صور القهر أو الاستغلال.

وبهذا تلتقي جملة المعاني اللغوية في معنى واحد هو التذليل والقهر التي تلتقي بمعنى السخرية والهزء.

وأما في المعاجم الغربية: فكثيرا ما يستعمل معنى (Irony- sacarasm- Cynical) بمعنى السخرية والتهكم وتعتمدها بعض الترجمات، بمعنى أن الفروق بينهم تعد طفيفة ويجري استعمالها بصورة عادية خاصة وأن بعض الترجمات تستعملها، فالمعاجم الفرنسية مثلا تعرفها بأنها:" طريقة في التهكم من شخص أو شيء، وذلك يقول عكس ما نريد قوله أو اسماع له"[9]. فالسخرية هنا من باب قول ما لا يقال وما يفهم من دون قول شرط أن يكون القصد مفهوما. ويقول البوجديدي تعليقا على هذا التعريف:" وهذا التعريف يعبر عن أساس السخري هو التعاون والتناقض بين المظهر والحقيقة، ومن ثمة أصبحت السخرية عندهم قائمة على إسماع المخاطب "ضد ما يعلن عنه الكاتب"[10].

الأمر نفسه مع أصحاب "معجم اللسانيات وعلوم اللغة" (dictionnaire de 'linguistique et des sciences du langage) حين عرفوا السخرية بأنها:" صورة بلاغية تتمثل في قول ضد ما تريد قوله بطريقة الهزل لا بطريقة الخداع"[11].

وهو التعريف نفسه في قاموس أكسفورد: حيث جعل مفهوم الضد أسا لتعريف السخرية. مع اختلاف طفيف في التعبير مقارنة بالمعجم الفرنسي. وعليه فالمعاجم الغربية تجعل من التضاد عنصرا أساسا في مفهوم السخرية.

ب- **السخرية في الاصطلاح**:

جاء في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : السخرية ف مفهومها البلاغي هي طريقة في الكلام عبر بها الشخص عن عكس ما يقصده بالفعل، كقولك: للبخيل "ما أكرمك" وهناك صورة أخرى للسخرية، وهي التعبير عن تحسر الشخص على نفسه كقول البائس "ما اسعدني"، ويلاحظ أن الغرض من السخرية يكون غالبا هجاء مستورا أو توبيخا أو ازدراء[12]. والناظر ف هذا التعريف يرى أن له اتصالا بمباحث البلاغة المشهورة والتي تعبر عن معنى من معاني السخرية، على الرغم من عدم وجود صياغة تجريدية لمصطلح السخرية، لكن البلاغة القديمة قد مارست أفانين الفكاهة والدعابة ولهزء والإضمار وتجاهل العارف، وتحدثوا في الوقت ذاته عن فنون الاحتيال والتلميح، والتعريض، والإبهام، وتأكيد الذم بما يشبه المدح والعكس، والهزل الذ يراد به الجد وغير ذلك ... [13]

وتجدر الإشارة إلى أن البحث في مفهوم السخرية يخضع لمجال البحث في حد ذاته، فمن يربط السخرية بالأدب يرجع بها إلى الأدب القديم مثل أدب هوميروس وغيره، ومن يجعلها فنا دراميا يرجع بها إلى المسرح اليوناني في عروضه الكوميدية والتراجيدية عند سوفوكليس، ومن يقول بأنها منهج فلسفي يرجعها إلى سقراط الفيلسوف الساخر والمتهكم الناقد[14].

وقد وردت تعريفات كثيرة لمفهوم السخرية في تعريفات كثيرة نذكر منها:

ويعرفها شوقي ضيف في كتابه الفكاهة في مصر: السخرية أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاج من ذكاء، وخفة، ومكر، وهي لذلك أداة دقيقة في أيدي الفلاسفة الذي يهزؤون بالعقائد والخرافات، ويستخدمها الساسة، للنكاية بخصومهم"[15]. فدل هذا على أن السخرية ليس من الصعب الإتيان بها في جملة الخطابات اليومية سواء بين العامة من الناس أو الخاصة لأنها تحتاج إلى ذكاء وفطنة.

تعني السخرية إثارة التهكم والاستهزاء والتفكه مما يثير الضحك عند الآخرين، والسخط، وعدم الرضا عند المُسْخَر منه، وقد تعددت الألفاظ الدالة على هذا المعنى، فأصبحت مرادفات لهذه اللفظة مع ما بينها من معان دقيقة[16]. وقد أشرنا لذلك فيما سبق.

ويمكن تعرف السخرية على أنها: النقد الذي يقصد منه إثارة الضحك، أو التجريح الهادئ، عن طريق الوصف المشوه المضحك، أو إبراز العيوب الجسمية أو الحركية أو العقلية، أو السلوكية بشكل غير مؤلم"[17]. فتعريف السخرية هنا باعتبار أن له جانبا نقديا قد يؤول إلى مقاصد يرومها المتكلم.

وهناك من يعرفها على أساس أن الكثير من الشعراء يجنحون لها ويوظفونها في أشعارهم:" بأنها طريقة منظورة، توسل بها الشعراء لنقد الأوضاع السياسة والاجتماعية والسير الفردية، والنيل منها بأسلوب يترفع عن الشتيمة والسباب المحض، ويتنزه عن القذف والإيغال في الفحش ورفث القول"[18]. والنماذج في ذلك كثيرة من لدن جرير والفرزدق والأخطل، إلى أحمد مطر وغيره.

ويذكر ياسين أحمد فاغور أن السخرية عموما هي أدب القاتل والهزء المبني على شيء من الغموض"[19]، وذلك الغموض هو ما يكسبها القوة ويجعل من حجتها في تلك العبارات القليلة أكثر تأثيرا في الخصوم.

والجدير بالذكر أن السخرية لا تتأتى لأي كان، وإن كانت تنبع من الهزء بالآخرين وتتبع النواقص فيهم، بل تكتمل صورتها عن ذلك بالإبداع الأدبي الذي يظهر في موهبة الشاعر من خلال بنائه لمعانيها.

فهذه جملة من التعريفات الاصطلاحية للسخرية والتي ركزت على بعض المعايير ابرزها الفنية والتميز، وكذا الغموض، والنقد بطريقة خاصة، مع توظيف بعض الأساليب البلاغية المعينة عليها، كما أنها لا تأتي إلا بعد دربة وخبرة كبيرة، وذكاء في شخصية الفرد.

1- شروط السخرية:

مما لا شك فيه أن للسخرة شروطا إذا ما توفرت تحققت فائدتها ومقاصدها في الكلام، خاصة إذا تميز صاحبها بحسن توظيف الحجج والبراهين، وتصرف في الكلام على صورة

حسنة مناسبة للغرض الذي يرومه، لأن السخرية لا تعني مجرد الاستهزاء والانتقاص من اللامرغوب فيه والمبتذل، بل هي وعي انتقادي يفضح الخطاب المضاد مفشيا سر حقيقة وهمه[20]، والذي يسعى له الرافعي هو بيان أن العقاد شاعر وأن حقيقة شعريته محظ وهم وزيف، وحتى تتحقق السخرية على وجهها الأكمل في الخطاب الساخر، وجب توافر شروط منها:

1-إشعار المسخور به بالقلة والضعة، خاصة بإزاء صفة تجمع له من المحاسن التي يظن الناس أنه لا يتصف بضدها، فيكون أسلوب السخرية كاشفا عن حقيقته، ومثبتا لما نفي عنه مما يفيد التحقير والتنفير بدلا من التعظيم والتبجيل[21]. وقد تحقق هذا الشرط في سخرية الرافعي من العقاد، وسنسوق طرفا منها، فمن ذلك مثلا: قوله:" ويدَّعي العقاد أنه إمام في الأدب، فخذ معنا في تحليله؛ أما اللغة فهو من أجهل الناس بها وبعلومها، وقلما تخلو مقالة له من لحن، وأسلوبه الكتابي أحمق مثله فهو مضرب مختلا بلاغة فيه من جهة اللغة والبيان ساقط، لا يكابر في هذا"[22]، فالعقاد الإمام في الأدب واللغة، لكن حظه من اللغة والأدب ضعيف جدا، ودليل ذلك هو كثرة اللحن في كلامه وشعره بصورة أولى، ولا يفقه في ضروب البلاغة أبدا، ومعانيه مختلة لا تعبر عن شيء لما فيها من التناقض والجهل، هكذا يسخر الرافعي من العقاد الإمام، وقد نفى عنه العلم بالأدب واللغة لأسباب عرضها في مقالاته على السفود، والمتأمل في لكام الرافعي علم أنه لا يهاب إسقاط العقاد من اعتداده لنفسه بل ويغرق في السخرية منه حتى يراه القراء ليس بشيء، وسنرى ذلك في معرض النماذج المختارة لذلك.

2- أن تكون قائمة على التصوير المبالغ فيه، وذلك إذا قصد منه التحسس الدقيق لحقيقة منخدع فيه، فيأتي أسلوب السخرية؛ للإبانة عن إثبات المغالاة في صفات المستحق لها، فكما أنه كان في أعلى القمم، فإن حقيقته تكمن في أدناها، وقد كثر مجيء هذا الشرط في بان حال العقاد؛ لأنها هي أكثر ما يرسخ اثرها في ذهن المخاطب والقراء، فإذا جاء أسلوب السخرية غير حقيقة مجرى الاعتقاد لديهم[23]، يقول الرافعي عنه:" ثم ماذا تقول في كاتب لم يشتهر إلا بمنزلة "البلاغ" في الأمة، ولم يعش إلا منه، ثم يتطاول على صاحب البلاغة نفسه –كما نشرت جريدة الأخبار- حتى يضطره إلى مثل هذه الكلمة التي قيلت في السماء لإبليس (اخرج منها) ...؟ ولكن هل لهذا العقاد قيمة حقيقية؟ وهل يخشاه أحد من الأدباء كما يظن هو أو كما يخيل إلى بعض الناس خارج مصر؟"[24]. لينهال عليه بعد ذلك بعبارات ساخرة يسقط فيها جبار الذهن كما يسميه. ويصوره كذلك في صورة الحمار الذي هو مضرب للجهل والغباوة والبلادة حين يقول:" الأمر كله وهم وخداع، كالحمار يلبس جلد الأسد ... فلما رأى القراء هذا العقاد لا يكتب إلا سبابًا وحقدًا ولؤمًا وتطاولًا على الناس ودعاوى فارغة وتضليلًا وإيهامًا بإيراد آراء الفلاسفة وزعمه

مناقشتها، ظنوا من تتابع كل هذا ما لا بد أن يظنه الضعفاء ويتأثروا به من عمل التكرار .وقد قيل إن الذئب إذا واثب إنسانًا ضلل حواسه، فجعل يثب بغاية السرعة أمامه وخلفه ويمينه وشماله وفوقه، ليخيل إليه من تتابع هذه الحركة السريعة أنه ذئاب كثيرة لا ذئب واحد، وبعبارة أخرى ليدير أمام عينيه سنماتوغرافيا كاذبًا لا حقيقة له، وهكذا يفعل هذا الذئب الأدبي العقاد[25]. فالرافعي يصور حالة الروغان والمكر عند العقاد في صورة الذئب الماكر الذي يزيف حقيقته، فيخدع حواس الناس والقراء، وقد ضرب به مثل الحمار من قبل لأنه مضرب في الجهل والبلادة وانعدام الفكر والعلم.

3- ابتكر الرافعي طريقة لم يسبق إليها في ميدان النقد وهي طريقة النقد والسخرية بالمثل، وذلك بأن يبتكر موضوعا يشبه ما كتبه ابن المقفع في كليلة ودمنة[26] ثم ينسج على منواله بلغة مميزة، ومعان جديدة ما يقصد إليه من السخرية بأحدهم، وقد وظف هذه الطريقة مع طه حسين والعقاد، غير أنها كانت مع طه حسين أكثر، وذلك في كتابه تحت راية القرآن[27]، مثل مقالاته التالية: فلما أدركه الغرق، واضرب لهم مثلا، أعمالهم كرماد اشتدت به الريح، قال دمنة وغيرها ومثل في الرد على العقاد بعنوان مثل الثور والجزار والسكين[28].

وللإشارة فإن خصومة الرافعي مع العقاد من أهم الخصومات في النقد الأدبي، ولا يدانيها منزلة إلا خصومته مع طه حسين، فلم تنته سجالات الرافعي ومعاركه الأدبية مع طه حسين وتلاميذه بعد، حتى شرع في مقالات "على السفود" في وقت كان في توتره وعصبيه شدة كبيرة، ردا على عبد الله عفيفي فقد أنشأ فيه سفودين في تاريخ 07 أيار(ماي) 1929م، ثم كتب سفوده الثالث في حزيران (يونيو) 1929م، معتبرا أنه (قد سقط)، ثم بعد قليل في 16 حزيران (يونيو) وضع العقاد في سفود غليظ" وتوالت سفافيد العقاد يريد أن ينضجه الرافعي عليها ويعد أن يكون سفوده السادس أشد سعيرا على أن يكون سفوده السابع في النصف الأول من كانون الأول (ديسمبر) 1929 على أن ينشر سفافيده العقاد في كتاب منفرد[29]. وقد نشرت هذه المقالات في مجلة "العصور" سنة 1929-1930م دون أن يذكر اسمه.

3- **أساليب السخرية عند الرافعي:**

كان أسلوب الرافعي فريدا في عصره؛ ميزته طريقته في الكتابة وتصويره للمعاني التي لا تتأتى لأي كاتب، خاصة إذا جنحت للسخرية، فيسخِّرُ صورا دقيقة، ويجلب له من كل فن وأسلوب ما يعينه على ذلك، فهو كاتب مجازي بالدرجة الأولى، ولا يرضى لآرائه وأفكاره أن تكون مستعارة بل يشحذ همته ليصنعها، ويخرجها في أبهى الألفاظ وأرق المعاني. فكيف به إذا ما خوصم وهو عزيز النفس والمنزلة، من خصومه وما أكثرهم، فنراه يقول عن طه حسين لما ألف كتابه رسائل الأحزان فاطلع عليه طه حسين ورد عليه حين وصف أسلوبه في "رسائل الأحزان"بقوله: "إنَّ كل

جملة من جمل هذا الكتاب تبعث في نفسي شعورا قويا مؤلما بأن الكاتب يلدها وِلاَدَةً، وهو يقاسي في هذه الولادة ما تقاسيه الأم من آلام الوضع" فأتى رد الرافعي مُخْرِسًا ومُصْمِيًا على النحو التالي:

"لقد كتبتُ "رسائل الأحزان" في ستة وعشرين يوما، فاكتب أنت مثلها في ستة وعشرين شهرا، وأنت فارغ لذلك العمل، وأنا مشغول بأعمال كثيرة لا تدع لي من النشاط ولا من الوقت إلا قليلا. وها أنا أتحداك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها، وإن لم يكن الأمر عندك في هذا الأسلوب الشاق عليك إلا ولادة وآلاما من آلام الوضع كما تقول، فعلىَّ نفقات القابلة والطبيبة متى وَلَدْتَ بسلامة الله"[30].

ويمكن إبراز أساليب السخرية عند الرافعي من حيث اللغة والألفاظ والتراكيب بصورة مختصرة فيما يلي:

2- تتسم ألفاظ الرافعي بالوضوح والسطحية وابتذال المعاني الساخرة، لتتلاءم و المقصود من السخرية؛ ظنا منه أن هذا هو الأليق بالعقاد. فمن ذلك مثلا: افتتاحه مقالات على السفود:" هذا وقد كتبنا مقالات على السفود – كما نتحدث عادة- لهوا بالعقاد وأمثاله- فهو يخبر في قالب ساخر أنه يتسلى بالرد على العقاد في عجلة من أمره وفي المقابل لو أنه جلس وتربص للرد عليه لجاءت مقالاته على صورة ساخرة اقوى بكثير من هذه[31]. من ذلك تعليقه على بيت شعر للعقاد يقول فيه:

لَازَمْتَنِيْ فِي جُفُونِي أَو تَسَهُّدِي طَيْفٌ يُسَاوِرُ أَو سَوَادٌ عَابِرُ

وهو لحن إذ يجب أن يقال: طيفا سوادا عابرا، ولا سبيل غير ذلك، لأنهما بيان لحالي الملازمة في النوم والسهد، ثم إذا لازمه حبيبه طيفا فما معنى "سواد عابر" في السهد والأرق؟ "يكونش العقاد يتغزل خفير الحارة؟" لأنه وحده السواد العار طوال الليل في فظة المراحيضي"[32]. فهو يسخر من العقاد وقصد إلى ذلك بالاستفهام التهكمي التعجبي في صورة العامية المصرية المعروفة آنذاك، استهانة به وتصغيرا لشأنه الذي يعتد به، و استهزاء بشعره، ويزيد في السخرية حين يبين اللحن في شعره العقاد وهو من هو، ذلكم الأديب الكبير والمفتخر بنفسه والمعتد بها جدا، والأمثلة عديدة في ذلك سنوردها لاحقا.

3- التناسب بين أسلوب السخرية وسياقها: ومن أمثلة ذلك قول الرافعي عن العقاد في سفافيده: "وهذا المغفل قد نسي أول بيت في قصيدته أنها "الخمرة الإلهية" وأنه يقول على طرقة "ابن الفارض" فذهب يسرق في كل بيت ممن لم يقولوا على هذه الطريقة ولا حرفا واحدا كما رأيت، أخزاك الله يا صاحب مرحاضه، وجهل المهل شرابك، كما جعلت في

شعرك المرحاض ثيابك، ولكن الغراب أراد أن يقلد الطاووس، وأراد العقاد أن يقلد ابن الفارض[33]، فلم يبلغ وبين الرافعي هناته وسقطاته في المعاني والألفاظ التي أوردها في شعره.

4- الاستنطاق المؤكد لإلحاق السخرية بالمسخور منه: ففي سياق التقرير بأن العقاد ليس بشاعر ولن يبلغ درجة الشاعر يقول الرافعي:" قابلوا أيها القراء واحكموا، إنكم لن تحكموا على صاحب مرحاضه إلا بالجلد ثمانين جلدة على الأقل"[34]، وذلك لأن الرافعي يعلم أن القراء المنصفين سيحكمون بمثل ما حكم هو على شعر العقاد من أنه ليس بشعر وإنما مجرد كلام يحتوي أخطاء كثيرة لغوية وبلاغية وغير ذلك، فيقول لمعشر القراء" نشدتكم الله أيها القراء أيستطيع أحد أن يرد علي غلطة واحدة من هذه الثمان أو يكابر فيها، وهل من يغلط ثماني غلطات في بيت واحد مع سخافته التي هي الغلطة التاسعة، يمكن أن يسمى شاعرا أو أديبا إلا في رأي الحمقى[35]. فهذه تقارير من الرافعي على المسخور به وهو العقاد إلحاقا للسخرية به، فيها تقرير وتوكيد على ما ذهب إليه من أنه ليس بشاعر وذكر أدلة في سفافيده تدل على ذلك.

5- السخرية بطريقة الاستفهام التهكمية: من المعلوم أن الاستفهام يأتي لطلب حصول صورة الشيء في الذهن[36]، على وجه الحقيقة ملاءمة للسياق ومقامه، إلا أنه يتجاوز ذلك إلى العديد من المعاني البلاغية منها؛ الإنكار التوبيخي، والتكذيبي، وكذلك الاستفهام بصورته أكسبها قوة وتأثيرا؛ لما يحمله من حدة قرع وشدة انفعال. وهو في القرآن الكريم يتكرر كثيرا، ردا به على المشركين، سخرية بهم وردا على سخافاتهم من ردهم للحق والإعراض عنه.

فيأتي الاستفهام التهكمي في سياق الزراية بمعاني العقاد الشعرية، بطريقة التعبير العامي تلاؤما مع عدم قبول الرافعي لوصف العقاد محبوبه، وقد اتسم هذا السياق بقلة المواضع في مقالات الرافعي.

6- نماذج من السخرية في أدب الرافعي مع عباس محمود العقاد:

كان نقد الرافعي للعقاد قد أخذ منحى جديدا، يأخذ أبعادا تتوارى خلف النقد، ونستشف ذلك من خلال كتابه على السفود الذي نقد فيه العقاد؛ الذي يقول فيه مقدمته بعد أن ذكر أبياتا استفتح بها كتابه يقول فيها:

وَلِلسَّفُودِ نَارٌ لَوْ تَلَقَّتْ بِجَاحِمِهَا حَدِيدًا ظُنَّ شَحْمًا

وَيَشْوِي الصَّخْرَ يَتْرُكُهُ رَمَادًا فَكَيْفَ وَقَدْ رَمَيْتُكَ فِيهِ لَحْمًا

صدر الرافعي بهذين البيتين كتابه "على السفود" وهما بمثابة تحذير، أو إنباء عن أن مصير العقاد سيكون وخيما، لأن الرافعي قد كتب فيه مقالات كالسفافيد يشوي فيها اعتداده وفخره بنفسه، ويكسر بها تجبره وغطرسته.

ليصرح بأنه أراد اللعب به واللهو معه في قوله: "هذا وقد كتبنا مقالات "السفود" كما نتحدث عادة لهوا بالعقاد وأمثاله، إذ كانوا أهون علينا وعلى الحقيقة من أن نتعب فيها تعبا، أو نصنع فيهم بيانا، فهم هلاهيل لا تشد أحدهم حتى ينهتك وينفتق وينفلق ...

وَإِنِّي لَمِمَّا أَضْرِبُ الكَبْشَ ضَرْبَةً عَلَى رَأْسِهِ تُلْقَي اللِّسَانَ مِنَ الفَمِ[37].

ومن نماذج السخرية الرافعية بالعقاد قوله في مقدمة الكتاب بقوله:

"بسم الله الرحمن الرحيم وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم في صورته وفي صور أتباعه وحزبه وشيعته ممن خُلقوا ليكون فيهم تاريخه على الأرض، ولتقوم بهم أعماله جارية مجراها في مقت لله وغضبه، ولا بد من مقت لله وغضبه على هذه الدنيا ملء ما يملؤه الليل. ونعوذ بالله من كل إنسان أسود المعنى، فإنما غضب لله سواد في معاني الناس". فهو يجعله في صورة تابع للشيطان وحزبه، فجمعه مع الاستعاذة منه، ثم نسبه للأعمال الجارية في مقت الله وغضبه، وهذا فيه نفي لحسنات العقاد، وأن الرافعي لا يرى منه شيئا حسنا، وهي قمة اللامبالاة والهزء به، ثم يستعيذ من كل إنسان أسود المعنى، في تلميحه إلى العقاد، واللون الأسود فيه دلالة على فساد خلق وسوء طوية وشر، فالرافعي يغلق جميع الأبواب أمام العقاد ولا يريد الاعتراف له باي حسنة أو فائدة.

وفي مقال له بعنوان: "جبار الذهن المضحك" يقول :" **لا ريب عندنا أن العقاد بعد هذه السفافيد كالمرأة بعد سقوط أسنانها !![38]، فهو يسخر منه هنا ويضع له صورة مضحكة، علاوة على تشبيهه بالمرأة، يقول عنه: كالمرأة بعد سقوط أسنانها؟ وهي عبارة ساخرة جدا، شبه فيها الرافعي العقاد في صورة عجوز شمطاء لا أسنان لها، وهي مثارة للضحك والسخرية.**

ثم يواصل الرافعي فيقول: انظر الفرق بين الشاعر الحقيقي مثل البحتري، والمتشاعر الدعي الغبي مثل العقاد الذي يقول:

إِنِّي إِلَى الرَّعْيِ مِنْ عَيْنَيْكَ مُفْتَقِرٌ يَا ضَوْءَ قَلْبِي فَإِنَّ القَلْبَ مِدْجَانٌ

فسر "مدجان" في الشرح بقوله: غائم!! ومدجان مفعال صيغة مبالغة، فكيف تأتي صيغة المبالغة من الرباعي أي فعل أدجن؟ والظاهر أن هذا العامي فهم من معنى 'الرعي) النظر، مع أن قولهم: رعاه الله لا يكون إلا بمعنى حفظه، فالمعنى أنه مفتقر إلى أن تحفظه عينا الحبيب!!! لأن قلبه مدجان. (يا حفيظ) !![39].

ونفسر كلام الرافعي هازئا بالعقاد ساخرا منه لاستعماله الصيغة "مدجان" وهي صيغة فيها غلط كبير ولا ضرورة لها أبدا، بل هي لحن فاحش وجهل باللغة أساسا، أن ما جاء من صيغة مدجان على مفعال للمبالغة، فكيف تأتى صيغة المبالغة من الرباعي أي فعل أدجن؟ وصيغ

المبالغة لا تأتى من الرباعي إلا ألفاظا مسموعة.. وأدجن وضعوا منه فعلا خاصا للمبالغة وهو قولهم : ادجوجن، فلا ضرورة لارتكاب الضرورة، وبذلك لا يجوز قطعا لعربي ولا لأعجمي ولا لمولد ولا لعامي كالعقاد أن يجعل مدجان صيغة مبالغة "وهنا موضع ما سقط من المطبعة وهو "مع وضعهم وزنا خاصا للمبالغة في هذه المادة وهو فعل "ادجوجن".

تبعا لمنهج الترقي في السخرية بالعقاد والانتقال به من الهين إلى الأهون في السخرية، نجد سياق بخس وإنكار لمقام العقاد بطريق الاستفهام التهكمي، قد بلغ أَوْجَهُ في النَّيْلِ من العقاد والحط من شأنه؛ وذلك من حيث شيوع الأساليب الاستفهامية المتلاحقة التي تعمل على بيان كمال الصورة المرئية في نفس الرافعي تجاه خصمه؛ وكأنه لم يقنع بما ساقه للبيان عنه في استفهام واحد، حتى حشد له بجانب الاستفهامات التهكمية الساخرة العديد من الاستفهامات المتلاحقة، الأمر الذي لاءم ظهور هذا السياق على سائر السياقات السابقة بكثرة مواضعه، فقد تمثل ذلك في سبعة مواضع جاءت على النحو التالي[40]:

1- سياق الاستخفاف بقيمته ومكانته الأدبية وجعلها في الحضيض: "ولكن هل لهذا العقاد قيمة حقيقية، وهل يخشاه أحد من الأدباء كما يظن هو أو كما يخيل إلى بعض الناس في خارج مصر؟ أما أنا فأذكر للقراء أحدث دليل وقع من أيام فقط، وذلك أن أديبًا كبيرًا أراد العقاد أن يواجهه بلؤمه في مجلس رئيس تحرير مجلة من أكبر المجلات، فثار فيه الأديب، وقال له في وجهه بالحرف الواحد « أنت وقح وسافل، وأنا أحتقرك ولا أعرفك »، هذه هي منزلة الرجل يعالنه بها أديب من أكبر الأدباء. وماذا تظنه فعل حين سمع هذا؟ قال له دمُه في داخل ضميره: صحيح صحيح!! فسكت ثم قام، وكاد الباب يبصق في وجهه نيابة عن الأديب المعتدى عليه وعلى أخلاقه الكريمة[41].

2- استنكار الرافعي على العقاد أحقيته للألقاب التي طالما اشتهر بها، ويستبدلها له في سياق السخرية فيقول مثلا:" **"أفتونا أيها القراء :أهذا جبار الذهن؟ أهذا كاتب؟ أهذا أديب؟ أهذا يفهم بيان العربية؟ أم هي صنعة جرائد، ثم مغفلون من الكتاب لمغفلين من القراء؟.**

3- يتساءل الرافعي عن سبب إيثار العقاد بالتدريس للآداب العربية العالية في حكومة - العراق، حيث إنه غير كفء لذلك في نظره فيقول: **" وما هو هذا العنصر الكيميائي العجيب الذي يحول كاتب جرائد في لحنه وعاميته وفساد ذوقه وسقم فهمه وضعف اطلاعه، وتهافت ناحيته في النظم والنثر إلى مدرس للآداب العربية العالية في حكومة العراق؟ أما إنه إن لم يكن عند هذه الحكومة حجر الفلاسفة ليجعل مثل العقاد مدرسا للآداب العربية بقوة الرجم الكيميائي إن لم يكن - عندها حجر السحر هذا فقد والله كادت تخرب البناء الذي تريد أن تقيمه بغلطتها في - حجر الزاوية".** فنرى هنا الاستفهامات التهكمية الساخرة،

تعبر عن نفسية الرافعي وهو يسخر بجبار الذهن، كاتب الجرائد، حتى يصور للقراء بعد أن نقد لغته ومعانيه وبين أنها من جنس الأخطاء واللحن في اللغة، ها هو يخبر أنه ليس أهلا لمهنة التدريس، إذ كيف يكون كذلك وهو يعاني اللحن في لغته، والضعف في اطلاعه، وأما شعره فقد أتى الرافعي على كثير منه ورد عله في مواضع جمة من ذلك، وهذا حتى يزعزع مكانته عند قرائه ويريهم حقيقته، لا سما وقد أكثر من الاستفهامات التي تفتح اقواسا للنظر في قيمة هذا الدعي الغبي كما يقول عنه.

4- ويأتي في طليعة هذه الدلالات ما ساقه بأداة الاستفهام "كيف" التي جاء ذكرها في أشهر مواضع سخريته من خصمه وهما البيتان القائلان :

وَلِلسَّفُودِ نَارٌ لَوْ تَلَقَّتْ بِجَاحِمِهَا حَدِيدًا ظُنَّ شَحْمًا

وَيَشْوِي الصَّخْرَ يَتْرُكُهُ رَمَادًا فَكَيْفَ وَقَدْ رَمَيْتُكَ فِيهِ لَحْمًا

فالرافعي يتوعد العقاد بتفحيمه، وتشويه صورته ساخرا منه، معتبرا إياه قطعة لحم، ستنال جزاءها وقد وضعت في سفافيد الرافعي التي تصهر الحديد مثل الشحم، والصخر مثل الرماد، عبر الأسلوب الخبري "وللسفود نار ...."؛ تأكيد ا على شدة فعل النار وقوة تأثيرها في تحويل حال مصطليها.

5- سخرية الرافعي من العقاد، بطريقة يفتخر فيها الرافعي بنفسه في حين يهزأ بالعقاد ويصف نقده بالنقد المخنث، والثرثرة، وبأنه (فالصو) على لغة الإفرنج يقول الرافعي في مقال "مفتاح نفسه" :**" نحن ـــ بعون الله ـــلا نضرب دائمًا إلا ضربات قاضية، ولا نعرف هذا النقد المخنث الذي رآه في الجرائد مما ليس فيه إلا الثرثرة، ولا تقدير له إلا بقولهم :أربعة أعمدة وخمسة أعمدة ... ومن ذلك سررنا بهذا الكتاب الذي تلقيناه، وسنأتي بقصيدة العقد هذه بيتًا بيتًا، ليرى بعيني رأسه وبكل أعين الناس أنه(فالصو) من أوله إلى آخره وأنه لا يزيد عندنا عن حبة من القمح رأت حجر الطاحون ساكنًا هادئًا متواضعًا، فجاءت تظهر سفهها وطيشها وتتهمه بالبرودة والجمود وتقول له إنها من قمح استراليا !!ثم ...ثم دار الحجر**[42]. وهذه إهانة للعقاد لأن الرافعي يتوعده وهو مطمئن البال، بأنه سيظهر عوراته اللغوية، وسوءاته البيانية، لا على لغة الأعمدة التي يكتب بها العقاد، بل في نقد وعرض طويل يقف مع شعره بيتا بيتا، ليريه بعيني رأسه، وهذا فيه تلميح لأن العقاد لم يتسنى له النظر في ما كتبه حتى يرى أنه مجرد (فالصو) من أوله إلى آخر، ومعنى كلامه: أنه مجرد أخطاء، وضرب له مثل شعره وكلامه أنه مثل حبة القمح، تطيش أمام الطاحون وهو هادئ لا يبالي، وتقول إنها من قمح استراليا، حتى إذا ما وقعت في الطاحون رأت من نفسها أنها لا شيء، فالمعتد بنفسه وجبار الذهن، قد اضحى حبة قمح صغيرة جدا.

6- ولحرص الرافعي على الإطاحة بالعقاد ساق له تلك الاستفهامات الساخرة المركزة في الدلالة على الحقارة والدناءة. **فقوله: "وهل اطلع هذا المراحيضي على كل ما كتبه العرب؟"[43] استفهام إنكاري تكذيبي لأن يكون العقاد اطلع على كل كتابات العرب حتى تسنى له الحكم عليه بسابق قوله. أيضا في هذا الاستفهام معنى الاستخفاف بأمر العقاد مما سوغ له الإشارة إليه باسم الإشارة "هذا" تحقيرا وتقليلا ، حيث انعدام أهليته المناقشة والجدال. وقوله:" وإن كان اطلع على كل كتبهم فهل قرأها كلها حتى أيقن أنها خالية (من صفحة واحدة) تكون بليغة في موضوع فلسفي أو منطقي أو علمي؟" أسلوب إنكاري تكذيبي آخر ارتقا ء في إثبات تكذيب إلمام العقاد بكل كتابات العرب يحمل معنى التقريع والتوبيخ والتشهير بالعقاد وتجهيل أمره. والرافعي بقوله: "وإن كان اطلع على كتبهم"، يترك فسحة ساخرة للعقاد يفلت بزمامه من قبضة إثبات عجزه، حتى يجد لنفسه مهربا على سبيل الهزء به[44].**

7- كذلك من سخرية الرافعي بالعقاد ضربه مثلا على منوال كليلة ودمنة، يورد فيه معنى مضحكا يريد الزراية فيه بالعقاد، وهي طريقة مبتكرة لم يسبق لها قبله خاصة وأنها وظفها في الجانب النقدي الساخر، ومن ذلك مثلا ما نشره في جريدة البلاغ من مثل "الثور والسكين والجزار"، فالكتابة على هذه الصورة مما يغري القراء، ويؤيد فن الحجاج عند الرافعي، حيث توخى في مقالته استراتيجية حجاجية متنوعة المحاور والوجوه بين الثور والجزار والسكين، وللإشارة فجملة ما كتبه الرافعي ف مقالات كليلة ودمنة النسخة الخاصة به، يندرج ضمن هذا الفن فن الحجاج والنقد الساخر، لأن الناظر في الحكاية المثلية يلفي مقومات الحجاج الأساسية تحكمت في أكثر من مستوى من مستويات خطابها، فقد توفرت فيها الاستراتيجيات الحجاجية والحوارية، والقصدية النفعية وغير ذلك[45]، ونورد هنا مقطعا مما جاء في مقال الرافعي "**مثل الثور والجزار والسكين**"[46] يقول : " ذكرني فزع العقاد بمثل قرأته في النسخة التي عندي من كتاب (كليلة ودمنة)، وقد رأيت أن أتحف بها القراء قراء البلاغ بهذا المثل قبل أن آتيهم بالهذيان الأدبي الذي رد به العقاد علينا[47]. ولفظ "الهذيان الأدبي" يدل على السخرية التي يرى فيها العقاد أن ما رد به العقاد عليه في جريدة الجهاد محظ هراء وهذيان ولي فيه من الصواب شيء، وليزيد تشويق القارئ ويبين له ذلك، راح يؤجل الحديث عن ذلك بذكر طرف من مثل كليلة ودمنة، فيجعل القارئ متلهفا ايهما يقرأ رد الرافعي على العقاد والذي فيه سخرية به ونقد لاذع، أم قراءة المثل والاستمتاع بالإبداع الساخر من العقاد في ضرب مثل الثور والجزار والسكين، فهي كلها وسائل انتهجها الرافعي للزراية بالعقاد وجلب القراء عليه.

ثم يقول الرافعي في مثاله :" قال كليلة وهو يضحك: فانطلق يا دمنة إلى الثور، وقال له: أيها الثور العظيم، نحن معشر جندك، المحتمين بدولتك، نعرف أن الله خلق في حلقك الرعد، وأن خوارك ما يكون أبدا إلا هزيم الصواعق التي في صدرك تقعقع من وراء هذا الغيب الذي هو حجاب من جلد شرفه الله بجعله في عنقك، وأن أظلافك كانت من أول الدهر جبالا عظيمة قائمة من الصخر الصلب تشمخ على السماء؛ فأراد الله أن يعلمها التواضع؛ فأرسل ملائكة الجحيم تعمل فيها ما يعمل صانع الأحذية في الأحذية؛ فجاءت فعملت فإذا أنت تنتعل من أربعة جبال، وأن قرنيك كرة أرضية حادثة لم تجد القدرة ما ترسيها عليك غير رأسك الأزلي على عقلك الابدي"[48]. اختار الرافعي حيوان الثور للدلالة به على العقاد، لما فيه من الطيش والتسرع، والهجوم على الآخرين دون بينة، ثم يشرع الرافعي في ذكر أوصافه ساخرا به فيقول عنه: أيها الثور العظيم، وما هو كذلك لأنه ورد في سياق الذم والسخرية به، فينمق له القول ويزينه له حتى يزداد كبرياء وتجبرا، ليصف خواره جلده وأظلافه وهل من فائدة ترجى من ذكر هذا فخواره مزعج، وجلده خشن قاسي، وأظلافه متدلية بشعة، والذي يزيد في السخرية هو تشبيه كل هذه الصفات بمشبهات عظيمة والجمع بينها لا يدل إلا على السخرية منه، وهي: الصواعق، والهزيم، والجبال والحجاب.

ثم يواصل الرافعي قوله:" وأما ذيلك فهوا النجم العظيم الذي كان هاويا في أغوار الفضاء، ثم تعلق بك كالمستغيث فأغثته وحملته وراء وراء، ومشيت تخطر به وتطوحه بقدرتك ذات اليمين وذات الشمال، وههنا رجل خبيث من أبناء آدم، يخيفنا ويزعجنا، ونريد أن نقذف به من فوق قرنيك العظيمين حتى يُدَوِّمَ، في الجو تدوما بعيدا، فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق[49]. ثم يردف الرافعي بذكر وصف ذيله ويطيل في مدحه، بصورة مضحكة، فهل يستحق الذيل كل هذه الأوصاف وهذا المدح، الذي في حقيقته ذم وفق هذه الصورة الساخرة، فقال بأنه نجم عظيم، هوى في أغوار الفضاء، فلم يجد هذا الذيل الكبير إلا هذا الثور الأهوج صاحب الخوار الصاعق والجلد الذي شرفه الله بجعله في عنقك، والأظلاف التي كالجبال العظيمة القائمة على الصخر، كل هذا وفي آخره ذيل كالنجم العظيم يستغيث بالعقاد أن ينجده. ومن المعلوم أن ذكر الذيل والتغني به أمر مذموم وما يدل على ذلك ما جاء من شعر الحطيئة في قصة "أنف الناقة" والقصة سردها ابن رشيق القيرواني في العمدة قائلا: " وكذلك بنو أنف الناقة كانوا يفرقون من هذا الاسم، حتى إن الرجل منهم يسأل: ممن هو؟، فيقول: من بني قريع، فيتجاوز جعفرا أنف الناقة بن قريع بن عوف بن مالك، ويلغي ذكره فرارا من هذا اللقب، إلى أن نقل الحطيئة جدهم وأحسن إليه فقال:

سِيرِي أَمَامَ فَإِنَّ الأَكْثَرِينَ حِصًّا وَالأَكْـــرَمِينَ إِذَا مَا يُنْسَبُونَ أَبًا

قَوْمُهُمُ الأَنْفُ، وَالأَذْنَابُ غَيْرُهُمُ وَمَنْ يُسَاوِي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا[50]؟

وحتى في محادثاتنا اليومية نقول جاء فلان في ذيل الترتيب، وفي الذيل، وفي سخرية منه نقول له ذيل أو نشبه شيئا منه كالذيل فكلها للسخرية والزراية به، وكذلك الحال هنا مع العقاد حين يمدح الرافعي ذيله ويفخم فيه عباراته له، لا للمدح والثناء أو ذكر اعتداد العقاد بنفسه بل سخرية منه فحسب.

ومن أمثلة سخرية الرافعي في مقالاته بالعقاد حين يعبر عن الكلام الصادر عن العقاد بأن له معان غير ظاهرة، بل حين يأتيه كلامه يقوم بترجمته ليخرج منه المعاني الحقيقية الكامنة وراءه ليبين فساد نفسه وأخلاقه المنحطة وغير ذلك فيقول: "ونحن لا نقرأ الكلام كما يقرأه الناس عادة بل نترجمه بما وراءه من أثر النفس وانفعالها وأحوالها وطبيعتها فإن النقد عندنا إنما هو كشف روح الكاتب أو الشاعر ثائرة مطمئنة ومزخرفة ومطموسة وسامية ومنحطة، فإذا ترجمنا كلام العقاد هذا من قاموس نفسه عندنا كان هكذا:

(عندي ما يشغلني) وترجمتها: ليس عندي ما أردته.

(اذهب إلى عالم الأشباح الذي القيت بك فيه منذ سنوات) وترجمتها : دعني لآن من فضلك كما تركتني مدة سنوات مضت.

(لن تظفر منا بعد اليوم بجواب) وترجمتها: هأنذا أعلنت هزيمتي.

فهذه الاستراتيجية التي عبر بها الرافعي عن معنى كلام العقاد إنما قصدها للسخرية منه، فجعل كل كلام يصدر منه محظ هذيان وعبث، كل بحسب معناه، وفي ردوه الركيكة على مقالات الرافعي، وأنه ليس بكفء حتى يواجهه في خصومته تلك، فقول مثلا: " يبدأ العقاد رده الأخير هكذا : (فلان رجل عامي من فرعه إلى قدمه، يظن كما يظن كل عامي أن المناقشة هي ان يغلب).

أليس هذا صريحا في أن أول كلمة نطقت بها نفس العقاد في رده أنه شاعر ملء نفسه بأنه مغلوب لا يطيق محاماة ولا دفعا ويريد أن يهرب من شعوره فيقلبه في هذه الكلمات حاسبا أن شعوره سيهرب عنه الألفاظ؟ ولكن ما هو البرهان على عاميتي أنا العامي الذي لا يخرج من العامية لحظة واحدة كما يقول الرجل؟

أمن البراهين عند العقاد قول ذلك الذي هو أذكى وابلغ رجل في الشرق وهو المغفور له سعد زغلول في وصف بيان مصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن (كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم)، أم تلك البراهين قول صاحبنا الأديب العظيم الأمير شكيب أرسلان في رسالة حديثة له وقد أراد ان ينقل فصلا من كتابنا إعجاز القرآن فقال:(ولقد راينا

أجمع ما كتب في هذا المقام كلام الأستاذ مفخرة العرب، وحجة الأواخر على الأوائل في علو طبقة الانشاء ووفرة الأدب)".

والحق أن الرافعي قد نقد العقاد نقدا لاذعا، وأفضل جزء من ذلك هو نقده اللغوي وبيان أخطائه اللغوية في ديوانه وهي كثيرة في مقالاتها، وقد جنح الرافعي في كثير منها إلى السخرية به، غير أننا نقول: إنه مهما كانت الأسباب الداعية لتأليف هذا الكتاب وإن أتلف النقاد والكتاب في تحريرها، فالكتاب (على السفود) كان له حظ في تاريخ النقد العربي من معارك الرافعي النقدية، وتاريخ العقاد أيضا، فأجمع الباحثون على أن أسلوب "على السفود" كان آية في النقد اللغوي، يدل على سعة الاطلاع وعمق التفكير، إلا أنهم يعيبون عليه ما جاء فيه من هجر القول وبذيء اللفظ، وكان رأيهم أن تحذف هذه الألفاظ حتى لا تمس شرف العلم[51]، ولو أن واحدا من الناس عكف على تقنية الكتاب من بذيء الألفاظ وفاحش المعاني، وأبقى على نقد الرافعي اللغوي وما اجتهد في إخراجه من ديوان الأربعين للعقاد وبين فيه أخطاءه اللغوية لكان سفرا له مكانته ضمن كتب النقد عامة والنقد اللغوي خاصة، خاصة وانه سلك فيه مسلكا جديدا لم يبق إليه من مثل: النقد بالمثل أو الحكاية المثلية.

وخلاصة البحث؛ أن السخرية عند الرافعي لم تأخذ طريقة واحدة، أو طريقة مباشرة، فتارة يهاجم العقاد وتارة يبعث له بمثل أو حكاية مثلية، وتارة يراسل قراء العقاد في جريدة البلاغ خاصة، وتارة يسخر من لغته وكتاباته في ديوانه خاصة، فعمد إلى هذه الاستراتيجية التي جعلت من نقده أكثر لذعا وإن جنح في كثير منه إلى البذيء من القول والفاحش من المعاني، فألفاظه كانت واضحة وسطحية ومعانيه الساخرة مبتذلة في الكثير منها، كما أن سياق السخرية التي يعرضها متناسب تماما ومتفق مع السخرية نفسها، خاصة حينما بين الرافعي أخطاء العقاد في معارضته لقصيدة الخمرة الإلهية لابن الفارض، كما أنه وظف أساليب متلفة منها: السخرية بطريقة الاستفهام التهكمي، والذي يفتح أما القارئ قراءات ومعاني يقودها الرافعي ليصل للمعنى الذي يريده وهو السخرية من العقاد، وأيضا اعتماده النقد بالمثل أو الحكاية المثلية التي يأتي فيها بمثل معين مناسب لموقف الرد الذي يريده مع العقاد وغيره. ولا يزال هذا الكتاب وغيره مما ألف الرافعي في حاجة للبحث عن أسلوب السخرية فيه، فهو يملك لغة تستطيع الكتابة عن أي معنى يريد وأي موضوع يشاء، فالسخرية في نقد الرافعي كان لها قسط وافر من التمثيل والاستدلال عنده، ولعل من يتصفح الكتاب يجد مواطن أخرى لم يسعنا سردها جميعا في هذا البحث، فهو الكاتب الساخر بامتياز.

هوامش البحث:

1 - سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط01، 1405هـ-1985م، ص 110.

2 - عبد النبي ذاكر، العين الساخرة، اقنعتها وقناعتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، ط01، مارس 2000، ص09.

3- عبد الحليم، محمد حسين، السخرية عند الجاحظ، الدار الجامعية للنشر، الجماهيرية الليبية، ط01، 1397هـ-1988م، ص64.

4- الحسن بن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، ج 3 ص 144.

5- علي البوجديدي، السخرية في أدب الجاحظ، دار كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط01، 1439هـ- 2018م، ص36.

6- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، 1986م، ص 122. مادة (سخر).

7- محمد بن مكرم بن على (أبو الفضل) جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف. 1998، ص 1963.(مادة سخر).

8- الحسن بن عبد الله بن سهل بن مهران العسكري أبو هلال ، الفروق في اللغة، دار العلم الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1991، ص 254-255.

9- علي البوجديدي، السخرية في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص 48.

10- مرجع نفسه، ص 48.

11- ينظر ف هذا الصدد:

Jean Dubois et autre: dictionnaire de 'linguistique et des sciences du langage, sous la direction de: Jean Dubois, paris, Ed la rousse, 2012, p258.

12- مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط02، 1984م، ص 198.

13- علي البوجديدي، السخرية في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص 57.

14- رائد عبيس، فلسفة السخرة عند بيتر سلوترديك، منشورات الاختلاف، ط01، 1437هـ- 2016م، ص22.

15- شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط03، ص10.

16- السخرية في شعر نديم محمد، آصف دريباتي، دار الجنان للنشر والتوزيع، الأردن، ط 01، 2016، ص07.

17- السخرية في شعر نديم محمد، آصف دريباتي ، مرجع سابق، ص 08.

18- شاكر عامري، علي صياداني، أسلوب شعر أحمد مطر السياسي، رؤية نقدية، مجلة كلة التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العراق، العدد 21، حزيران 2015، ص07.

19- رونق حشيفة، فريال لموشية، أسلوب السخرية في الشعر السياسي لأحمد مطر، دراسة فنية، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية تخصص أدب حديث، جامعة حمه لخضر، الوادي، 1440هـ-2019م، ص08-09.

20- عبد النبي ذاكر، العين الساخرة، مرجع سابق، ص13.

21- صابرين محمد محمود عبد الرحمن، أساليب سخرية الرافعي من العقاد في كتاب عَلى السَّفُّود ،دراسة تحليلية بلاغية، مرجع سابق، ص 12.

22- مصطفى صادق الرافعي، على السفود، مرجع سابق، ص 19.

23- صابرين محمد محمود عبد الرحمن، أساليب سخرية الرافعي من العقاد في كتاب عَلى السَّفُّود ،دراسة تحليلية بلاغية، مرجع سابق، ص 12-13.

24- مصطفى صادق الرافعي، على السفود، مرجع سابق، ص 18.

25- المرجع نفسه، ص 18.

26- كان الرافعي يقول عنها: إنه ليس مثلها عند أحد غيري وأنه لا تأبى عليها حكمة ولا تهولها حادثة ولا يتعاظمها مثل، وقال أيضا: في النسخة التي عندي من كتاب (كليلة ودمنة)، ويعرف الأدباء الذين قرأوا كتابي (تحت راية القرآن) أنه ليس في العالم كله نسخة أخرى مثلها.

27- وكان الرافعي قد عزم على إتمام كتاب كليلة ودمنه وهو نسخة خاصة به، لكن الشواغل صرفته عن ذلك ولم تبق منه إلا هذه المقالات المثبتة في كتاب تحت راية القرآن ، وأخرى في رده على العقاد نشرها في جريدة البلاغ المصرية.

28- وليد كساب، مقالات الرافعي المجهولة (ج02)، ، كتاب المجلة العربية، الرياض، 1438هـ.

29 - محمود أبو رية، رسائل الرافعي، الدار العمرية، (د ط)، ص 129، ص130. ص159، ص160.ص164.

30- مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، صحح أصوله محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي، مصر، ط07، 1394هـ- 1974م، ص 109-110.

31- صابرين محمد محمود عبد الرحمن، أساليب سخرية الرافعي من العقاد في كتاب عَلى السَّفُّود ،دراسة تحليلية بلاغية، رسالة جامعية مقدمة لنيل درجة التخصص (الماجستير) في البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بأسيوط، مصر، 1438هـ – 2017م، ص 03.

32- مصطفى صادق الرافعي، على السفود، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، ص116.

33- مرجع نفسه، ص 66 و ص 79.

34- مرجع نفسه، ص 106.

35- مرجع نفسه، ص 44.

36- سعد الدين التفتا زاني ، مختصر المعاني، دار الفكر، ط01، 1411 هـ. ، ص132.

37 - مصطفى صادق الرافعي، على السفود، مرجع سابق، ص 59-60.

38- مرجع نفسه، ص 41.

39- مصطفى صادق الرافعي، على السفود، مرجع سابق، ص 25.

40- صابرين محمد محمود عبد الرحمن، أساليب سخرية الرافعي من العقاد في كتاب عَلى السَّفُّود ،دراسة تحليلية بلاغية، مرجع سابق، ص13.

41- مصطفى صادق الرافعي، على السفود، مرجع سابق، ص18.

42- مصطفى صادق الرافعي، على السفود، مرجع سابق، ص 57.

43- مرجع نفسه، ص92.

44- صابرين محمد محمود عبد الرحمن، أساليب سخرية الرافعي من العقاد في كتاب عَلى السَّفُّود ،دراسة تحليلية بلاغية، مرجع سابق، ص31.

45- لمزيد من المعلومات، ينظر: هند الشويخ بن صالح، إبراهيم بن صالح، الحكاية المثلية عند ابن المقفع، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط01، 2019. وكتاب: أدب الحيوان عند العرب قص وحجاج لسامية الدريدي الحسني، مركز النشر الجامعي. تونس 2012.

46- كتب الرافعي نص المثل الحكائي بعد أن قرأ في جريدة الجهاد رد العقاد عليه، وقال عنه الرافعي:" إنه رد طائر بالكلام على وجهه، مثير حوله عجاجة من السب كما تفعل النعامة إذا طاردها الرعب في عرض البيد". ينظر مقالات الرافعي المجهولة لوليد كساب، الجزء الثاني، ص 51.

47- وليد كساب، مقالات الرافعي المجهولة، ج02، مرجع سابق، ص 51.

48- وليد كساب، مقالات الرافعي المجهولة، مرجع سابق، ص50-51.

49- مرجع نفسه، ص52.

[50]- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، سوريا، ج01، ط05، 1401هـ-1981م، ص50.

51 - محمد الأخضر بن مسعود، نثر مصطفى صادق الرافعي، ينظر المرجع، ص 110.

المصادر والمراجع:

المصادر باللغة العربية:

1. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، سوريا، ج01، ط05، 1401هـ-1981م.
2. أدب الحيوان عند العرب قص وحجاج لسامية الدريدي الحسني، مركز النشر الجامعي. تونس 2012.
3. رائد عبيس، فلسفة السخرية عند بيتر سلوتردايك، منشورات الاختلاف، ط01، 1437هـ- 2016م.
4. السخرية في شعر نديم محمد، آصف درباتي، دار الجنان للنشر والتوزيع، الأردن، ط 01، 2016.
5. سعد الدين التفتا زاني ، مختصر المعاني، دار الفكر، ط01، 1411 هـ.
6. سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط01، 1405هـ-1985م.
7. شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط03. د س ن.
8. عبد الحليم، محمد حسين، السخرية عند الجاحظ، الدار الجامعية للنشر، الجماهيرية الليبية، ط01، 1397هـ-1988م.
9. عبد الخالق عبد الله عودة عيسى، السخرية في العصر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، آب 2003م.
10. عبد النبي ذاكر، العين الساخرة، اقنعتها وقناعتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، ط01، مارس 2000.

11. عبد النبي ذاكر، العين الساخرة، اقنعتها وقناعتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، ط01، مارس 2000.
12. علي البوجديدي، السخرية في أدب الجاحظ، دار كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط01، 1439هـ- 2018م.
13. مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط02، 1984م.
14. محمد الأخضر بن مسعود، نثر مصطفى صادق الرافعي، دار مكتبة الشركة الجزائرية، ط01، 1968.
15. محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط03، 1375هـ- 1955م.
16. محمود أبو رية، رسائل الرافعي، الدار العمرية، (د ط). د س ن.
17. محمود أبو رية، رسائل الرافعي، دار المعارف، الطبعة الثانية ، القاهرة، مصر. 1998.
18. مصطفى الصيد، النقد الأدبي عند مصطفى صادق الرافعي، وعود النظرية وحدود التطبيق، مجمع الأطرش، تونس، ط01، 2018.
19. مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، صحح أصوله محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي، مصر، ط07، 1394هـ- 1974م.
20. مصطفى صادق الرافعي، رواية حسام الدين الاندلسي، تحقيق وليد كساب، دار البشير للثقافة والعلوم، الطبعة الأولى،1436 هـ-2015م.
21. مصطفى صادق الرافعي، على السفود، دار العصور، 1348هـ/1930م.
22. مصطفى صادق الرافعي، على السفود، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر. 2012.
23. مصطفى نعمان البدري، الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد، دار الجيل، بيروت لبنان، ط01، 1411هـ-1991م.
24. نزار عبد الله خليل، السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار حامد، عمان، الأردن، ط01، 2012.
25. هند الشويخ بن صالح، إبراهيم بن صالح، الحكاية المثلية عند ابن المقفع، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط01، 2019.
26. وليد كساب، مقالات الرافعي المجهولة (ج02)، ، كتاب المجلة العربية، الرياض، 1438هـ
27. وليد كساب، مقالات الرافعي المجهولة في اللغة والأدب، المجلة العربية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ج01. 1437هـ.

المعاجم:

1. الحسن بن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، ج 3 . د س ن.
2. الحسن بن عبد الله بن سهل بن مهران العسكري أبو هلال ، الفروق في اللغة، دار العلم الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر. 1991.
3. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، 1986م.

4. محمد بن مكرم بن على (أبو الفضل) جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف. 1998.

رسائل التخرج:

1. رونق حشيفة، فريال لموشية، أسلوب السخرية في الشعر السياسي لأحمد مطر، دراسة فنية، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية تخصص أدب حديث، جامعة حمه لخضر، الوادي، 1440هـ-2019م.

2. صابرين محمد محمود عبد الرحمن، أساليب سخرية الرافعي من العقاد في كتاب عَلى السَّفُّود ،دراسة تحليلية بلاغية، رسالة جامعية مقدمة لنيل درجة التخصص (الماجستير) في البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بأسيوط، مصر، 1438هـ – 2017م.

المجلات:

1. حسين حسن مخلوف، مصطفى صادق الرافعي حياته وأدبه، كتاب مجلة الهلال، العدد205 ، جمادى الأول 1396هـ، ماي1976 م.

2. شاكر عامري، علي صياداني، أسلوب شعر أحمد مطر السياسي، رؤية نقدية، مجلة كلة التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العراق، العدد 21، حزيران 2015.

3. عمر الدسوقي، خيال الرافعي، مجلة الرسالة، مصر، العدد رقم 514، 10 مايو 1943.

المراجع باللغة الأجنبية :

1. Jean Dubois et autre: dictionnaire de 'linguistique et des sciences du langage, sous la direction de: Jean Dubois, paris, Ed la rousse, 2012, p258.